الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

"المصباح" واحد ولكن الطريق مختلف

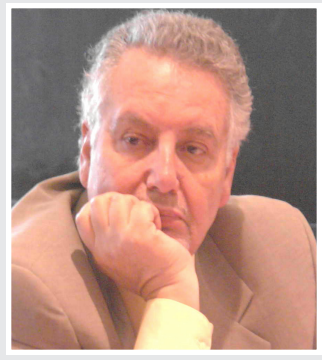

شاكر النابلسي

كاتب اردني - امريكا

وعدنا القراء الكرام في الأسبوع الماضي الإجابة على سؤال: لماذا وصل "حزب العدالة والتنمية" التركي إلى كرسي الحكم، وفشل حتى الآن "حزب العدالة والتنمية" المغربي، برغم أسبقية الحزب المغربي في العمل السياسي الديني، وبرغم أنه المُعلم للحزب التركي، وأخيراً برغم أن الحزبين يعملان تحت شعار واحد، وهو شعار "المصباح" الهادي إلى سواء السبيل؟!

ولكن قبل الإجابة على هذا السؤال، علينا أن نعلم جيداً الفروق الكبيرة بين التاريخ الإسلامي المغربي وبين التركي، وبين نظام الحكم في المغرب وتركيا، وبين المرجعية السياسية في المغرب وتركيا، وأخيراً بين علاقة الشعب المغربي بالإسلام السياسي وعلاقة الأتراك بالإسلام السياسي أيضاً.

فرغم أن الخلافة الإسلامية العثمانية دامت ثمانية قرون (١٢٨١-١٩٢٤)، وحكمت باسم الإسلام معظم الأقطار الإسلامية حكماً مباشراً، وحكمت البقية الباقية من العالم الإسلامي حكماً غير مباشر، إلا أن العلمانية كانت أسبق في تركيا منها إلى أي بلد عربي/إسلامي آخر وخاصة المغرب، وذلك للأسباب التالية:

١- تاريخ الخلافة الإسلامية في المغرب الممتد منذ خمسة قرون تقريباً (١٦٦٦-٢٠٠٧) إلى الآن ما زال قوياً ومُطاعاً من قبل الأحزاب العلمانية في المغرب كحزب الاستقلال (حزب الأغلبية المُكلف الآن بتشكيل الحكومة) وحزب الاتحاد الاشتراكي وغيرهما. وكان وما زال ملوك العلويين وسلاطينهم في المغرب يلقبون بالخليفة حيناً وبأمير المؤمنين حيناً آخر، كما هو الحال الآن مع الملك محمد السادس (أمير المؤمنين). وبهذا لم يتم فصل الدين عن الدولة في المغرب. بل إن الأسرة العلوية الحاكمة كانت وما زالت تستمد شرعيتها من الدين، ومن كونها من سلالة آل البيت، وليس من أي شيء آخر. في حين تم فصل الدين عن الدولة في تركيا في ١٩٢٣ من خلال الثورة الكمالية فصلاً تاماً، وربما قاسياً (إغلاق بعض المساجد وتحويلها إلى متاحف، ومنع الحج لعدة سنوات، وإلغاء اللغة العربية.. الخ.) وهي الإجراءات التي أساءت فيما بعد إلى حركة العلمانية والحداثة العربية. حيث اعتُبرت ثورة كمال أتاتورك وإطاحته الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ثورة شيوعية، فيها إساءة واضحة ليس للخلافة العثمانية ولسلاطين بني عثمان، بقدر ما هي إساءة لا تغتفر للإسلام نفسه. في حين أن مثل هذه الإجراءات لم تجرِ في المغرب. وظل المغرب منذ خمسة قرون وحتى هذه اللحظة نظاماً ملكياً يحكمه نظام ملكي من أعرق الملكيات في العالم. ولم تنجح الأحزاب المغربية العلمانية بالإطاحة بالخلافة الإسلامية العلوية كما فعل كمال أتاتورك في تركيا. وكان الطريق العلماني إلى فصل الدين عن الدولة أمام "حزب العدالة والتنمية" المغربي وعراً وشاقاً، بل غير مفكر فيه. ولم يستطع هذا الحزب أن يأتي بجديد واقعي يختلف عما رفعه الإخوان المسلمون من شعارات في مصر في الانتخابات التشريعية الأخيرة وأبرزها ذاك الشعار العاطفي الديني البراق (الإسلام هو الحل) الخالي من المضامين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي يمكن أن تؤدي إلى حلول لمشاكلنا المعاصرة والملحة. في حين كان الطريق ممهداً لحزب العدالة والتنمية في تركيا لأن يتبنى العلمانية، كما قرأنا في مقالاتنا السابقة، في الأسبوعين الماضيين، تحقيقاً لمستقبل تركيا في الانضمام للاتحاد الأوروبي، الذي تسعى إليه منذ نصف قرن تقريباً، ولما يتحقق لها بعد.

٢- المرجعية السياسية في المغرب للقصر الملكي أو لـ "مخزن" أمير المؤمنين الذي يعيش حياة غربية، ويفكر تفكيراً عقلانياً غربياً، ولكنه ما زال يحكم باسم أمير المؤمنين ضماناً لاستمرار الشرعية. والملك الشاب محمد السادس في واقع الأمر، لم يكن راغباً في هذا، ولكن يبدو أن المؤسسة الدينية المغربية هي التي أرادت، وتمت على الملك محمد السادس ذلك. ووافقها الملك، الذي أصبح ملك الجميع من إسلاميين وعلمانيين. وأصبح بهذا اللقب (أمير المؤمنين) قوياً أمام المعارضة الدينية خاصة. في حين أن المرجعية السياسية في تركيا هي للمؤسسة العسكرية، التي حاربت، وأسقطت، ومنعت كل ما من شأنه أن يُعيد تركيا إلى عهد الرعايا والتكايا والخلافة الإسلامية قبل ١٩٢٤، وهي التي إذا شمت رائحة حكم ديني من بعيد، انتفضت وعارضت. وقد رأينا كيف أن المؤسسة العسكرية التركية كانت غير راضية عن نجاح "حزب العدالة والتنمية" في الانتخابات التشريعية الأخيرة، وكذلك فوزه بكرسي الرئاسة التركية. وقاطعت احتفال تنصيب الرئيس عبد الله غول. ورفض رئيس الأركان التركي مصافحته وتهنئته بمنصب الرئاسة، برغم أنه لم يبقَ من بُعد ديني لـ "حزب العدالة والتنمية" غير قطعة القماش التي تضعها "خير النساء" زوجة غول على رأسها كحجاب، وكإشارة على إسلاموية "حزب العدالة والتنمية".

٣- علاقة الشعب المغربي بالإسلام علاقة عاطفية شاملة. فالغالبية العظمى من الشعب المغربي من الأرياف، حتى الذين يسكنون المدن الكبرى كالدار البيضاء والرباط ومراكش وطنجة وفاس ومكناس، هم ريفيو المعشر، والتفكير، والمعاش، والعقيدة الدينية. وهؤلاء متمسكون بالعرش العلوي وجذوره الدينية. ويؤمنون بأن العائلة العلوية الحاكمة عائلة دينية مباركة، وهم من آل البيت، ومن سلالة الرسول عليه السلام. لذا، فإن الإخلاص والولاء لهذه العائلة ديني أولاً، وهو جزء من إيمانهم وانتمائهم للإسلام. ثم إن هذا الولاء سياسي ثانياً، لأن الشعب المغربي يدرك أن لا حاكماً يستطيع حكم المغرب في ظل تنازع الأعراق (عرب وبربر) غير العائلة العلوية، ولهذا لم يثر الشعب المغربي ولم يخلع أعتى سلاطين وملوك هذه الأسرة بعد الاستقلال عام ١٩٥٦، في حين أن علاقة الشعب التركي بالإسلام ليست علاقة عاطفية، بقدر ما هي علاقة واقعية براجماتية. فلا شك أن الشعب التركي قد ابتهج لسقوط الخلافة الإسلامية في تركيا العثمانية سقوطاً فعلياً غير معلن، بعد موت السلطان الأحمر السفاح عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٨، وسقوطاً معلناً مدوياً عام ١٩٢٤ ثم استدار نحو أوروبا استدارة كاملة وطلب العضوية في الاتحاد الأوروبي الذي كان من ضمن شروطه، المحافظة على الفصل التام بين الدين والدولة، وبقاء تركيا دولة علمانية محضة. وهو ما حاولت الأحزاب السياسية المتعاقبة في النصف الثاني من القرن العشرين العمل له والمحافظة عليه، وبدعم كبير من المؤسسة العسكرية، برغم هزيمة تركيا الفاضحة في الحرب العالمية الأولى من قبل الحلفاء، التي تسعى تركيا للتحالف معهم الآن. في حين ظلت كراهية المغرب لفرنسا وللغرب عموماً تنطلق من منطلقات دينية أولاً ككفار مكروهين شرعاً، وكمستعمرين سابقين للمغرب، ولم يخرجهم من المغرب غير الكفاح الديني المقدس. ولم تستطع السنون الطويلة منذ أن نال المغرب استقلاله عام ١٩٥٦ إلى الآن أن تُنسي المغاربة حقدهم على الغرب عموماً وخاصة فرنسا واسبانيا

وفي الأسبوع القادم سنقارن بين الخطابين السياسيين لهذين الحزبين اللذين حملا مصباحاً واحداً، وسلكا طريقاً مختلفاً، ونرى أين نجح الحزب التركي، وأين فشل الحزب المغربي.

رؤيــة حــواريــة

هل العراق ولاية أو مستعمرة أمريكية يا مجلس الشيوخ الأمريكي؟

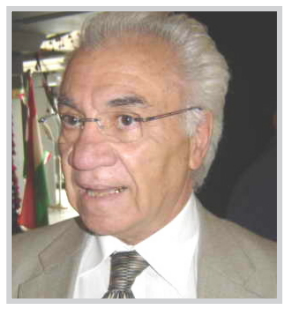

كاظم حبيب

كاتب سياسي - المانيا

أصدر مجلس الشيوخ الأمريكي قراراً عجيباً وغريباً واستفزازياً لمشاعر كل العراقيات والعراقيين، قراراً يتناقض مع القانون الدولي ومع كون العراق عضواً في الجمعية العامة للأمم المتحدة وتسري عليه اللوائح المقرة دولياً في هذه الهيئة الدولية، قراراً يتقاطع كلية مع الحديث عن القرار الذي صدر عن مجلس الأمن الدولي الذي أنهى بموجبه الاحتلال الدولي للعراق واعتبار العراق دولة تتمتع بالاستقلال والسيادة الوطنية و كما اعتبر وجود القوات الأمريكية والبريطانية وغيرها من القوات الأجنبية في العراق مقترنة بموافقة الحكومة العراقية وبطلب منها، ويفترض فيها أن تنسحب من العراق متى طلبت الحكومة العراقية منها ذلك.

إذا كان هذا القرار صحيحاً ونافذ المفعول، وإذا كان العراق دولة ذات استقلال وسيادة وطنية، فأي حق يتمتع به مجلس الشيوخ الأمريكي ليصدر قراراً يوافق فيه على تقسيم العراق؟ هل يريد مجلس الشيوخ الأمريكي أن يشدد من الصراع الداخلي، الذي بدأ لتوه يخف نسبياً، ويعمق المشكلة القائمة ويدفع بقوى جديدة إلى معارضة الوضع الجديد والتصدي للحكومة؟ هل يريد بهذا مواصلة وجود القوات الأمريكية في العراق، أم أنه يريد أن يفتح جيباً لإيران في جنوب العراق لكي يدعي باستمرار وجود تهديد من جانب إيران لمنطقة الخليج من خلال جنوب العراق أيضاً؟ هل يريد أن يعمق ويكرس الصراع الطائفي السياسي في العراق من خلال خلق فيدرالية شيعية وأخرى سنية لكي يبقى العراق متصارعاً عاجزاً عن تحقيق الأمن والاستقرار، ولكي تبقى القوات الأمريكية أطول فترة ممكنة في العراق؟ يبدو لي أن هذا المجلس ما زال يفكر بذهنية استعمارية ترى في الولايات المتحدة إمبراطورية القرن الحادي والعشرين وأن من حقها ليس التحكم بالاقتصاد والعلوم والتقنيات والقوة العسكرية فحسب، بل من حقها التحكم بمصائر الدول ورسم ما تريد لها من هياكل إدارية تتناقض مع مصالح شعوب العراق والمنطقة.

إن قرار مجلس الشيوخ الأمريكي يثير مشكلات إضافية للعراق من جانب الدول العربية، برغم الموقف الصائب من جانب البيت الأبيض الذي رفض هذا القرار على وفق ما نقلته وكالات الأنباء العالمية. ولكن طرح مثل هذا المشروع على التصويت في مجلس الشيوخ الأمريكي يعطينا حقيقة مشاعر هذا المجلس إزاء العراق باعتباره ولاية أو مستعمرة تابعة له، وهو ما يفترض أن نرفضه بشكل قاطع، وهو في الوقت نفسه استفزاز لمشاعر الناس، إذ ليس هناك من تدخل فظ جديد في العراق أسوأ وأكثر فظاظة من هذا التدخل القادم من مجلس الشيوخ الأمريكي.

دعونا نرتب الأمور وتوضيح الأمر. يتكون العراق من قوميتين كبيرتين هما القومية العربية والقومية الكردية، إضافة إلى التركمان والكلدان والآشوريين. والعراق مكون من الجزء العربي والجزء الكردستاني من حيث الأرض. وقد اضطر حتى النظام البعثي السابق على الاعتراف بذلك حين أقر قيام حكم ذاتي في إقليم كُردستان العراق. والذي لم يتحقق دون نضال عنيد وصبور من جانب الشعب الكردي ودعم قوى الحرية والديمقراطية العربية وغيرها في العراق له في هذا النضال العادل. وقد عمد النظام ألصدامي إلى ممارسة شتى أساليب الخديعة والتآمر ومحاولات الاغتيال للالتفاف على قانون الحكم الذاتي وتفريغه نصاً وروحاً وممارسة من محتواه على امتداد فترة وجود الحكم الذاتي بصيغ مشوهة. وقد طور الشعب الكردي هذا الاتجاه بإقامة الفيدرالية الكردستانية ضمن إطار الجمهورية العراقية. لقد أقر هذا الموقف الشعب الكردي عبر البرلمان الكردستاني، في حين كان في مقدوره الانفصال عن العراق في ظل النظام الدكتاتوري السابق، حين أقر مبدأ الفيدرالية في عام ١٩٩٢ إذ لم تكن فكرة الانفصال واردة برغم ما قام به النظام الدموي السابق، بما في ذلك جرائم حلبجة والأنفال. وقد وافق الشعب العراقي على هذا القرار الكردستاني السليم والواقعي، وبالتالي فالعراق يمكن أن تنشأ فيه فيدراليتان، فيدرالية كُردستانية تضم إليها المحافظات الكردستانية، وفيدرالية عربية تضم إليها المحافظات العربية بغض النظر عن الدين أو المذهب، فالقسم العربي من العراق يتكون من عرب، بغض النظر عن الدين والمذهب، وسواء أكانوا من العرب السنة أو العرب الشيعة أو أتباع الديانة الصابئة المندائية العرب، وقوميات أخرى. كما ينظم الدستور طبيعة العلاقة بين الحكومة المركزية في بغداد وبين الفيدراليتين. ولا يمكن أن نفهم في إطار المرحلة الراهنة أي توزيع إداري آخر في العراق في المرحلة الراهنة. ولا شك فأن من الواجب أن تتمتع المحافظات، سواء من جانب المركز أو الفيدراليتين، باللامركزية الإدارية.

أن من واجب العراقيات والعراقيين، واجب الأحزاب والقوى السياسية العراقية، واجب المنظمات المهنية وغير الحكومية، واجب الحكومة العراقية ومجلس النواب والهيئات الدستورية، واجب الجميع، أن يحتجوا بشدة على قرار مجلس الشيوخ باعتباره تدخلاً فظاً في الشأن العراقي الداخلي وفي هيكله الإداري، بغض النظر عن مواقفنا المتفقة أو المختلفة بشأن الفيدراليات، إذ ليست هذه المسألة من صلاحياته وهو ليس مخولاً أن يتحدث باسم الشعب العراقي ولا أن يفرض على الشعب العراقي ما ينبغي له أن يمارسه. وإذا وافقنا على مثل هذا القرار فيمكن أن يصدر هذا المجلس غداً قراراً آخر يقضي بجعل حقول النفط في العراق ملكاً للولايات المتحدة أو خصخصتها بالكامل مثلاً، أو حين تسوء العلاقات بين قيادة الشعب الكردي والولايات المتحدة عندها يصدر هذا المجلس قراراً بإلغاء الفيدرالية الكردستانية أو إلغاء وجود الدولة العراقية وجعلها ولاية تابعة للولايات المتحدة، فهل نخضع لمثل هذه القرارات الطائشة، كما في قرار تقسيم العراق إلى ثلاث فيدراليات؟ طبعاً: كلا، ولهذا علينا أن نذكر مجلس الشيوخ الأمريكي بأن مرحلة الاستعمار قد ولت ولن يقبل الشعب العراقي بعودته إلى العراق عبر صدور مثل هذه القرارات. وأن من واجب الشعب ومن صلاحياته أن يقرر الصيغة المناسبة لهيكله الإداري. إن الهيئات الدستورية في الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تذكرنا باستمرار بأنهم لم يأتوا إلى العراق محررين بل فاتحين ومحتلين.

وإلا لما كان من حقهم أنهم يصدروا قرارات لا شأن لهم بها، بل هي من صلاحيات العراق وشعبه والقوميات فيه فقط.

تباشير فكر النهضة في العراق (السياق العربي/ مصر: الطهطاوي والأفغاني)

جمال الدين الافغاني

عبد الرحمن الكواكبي

رافع الطهطاوي

سعد محمد رحيم

باحث

ينتمي العراق، ثقافياً، إلى الفضاء العربي الإسلامي. ومن الطبيعي أن يؤثر ما يحصل في ذلك الفضاء على وضعه وعلى تفكير ومزاج شعبه. ويوم كانت بغداد الحاضرة المتروبولية وعاصمة الخلافة العربية الإسلامية أصبحت قبلة مثقفي وعلماء ومبدعي الشرق والغرب، ومركز ثقافة العالم. تنتج الفنون والآداب والمعارف والعلوم لمدة تزيد على الأربعة قرون. لكنها منذ سقطت على يد المغول في القرن الثالث عشر خسرت دورها الثقافي والحضاري، ودخلت عتمة التاريخ. وما كان للتاريخ أن يعود سيرته الأولى بيسر يوم صحا العراقيون على دمدمة طبول التغيير، وهي تهز أركان الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر، ومنها الولايات العربية والإسلامية. لكن بغداد ما عادت هي الرائدة الأولى في حركة النهضة الحديثة.. كانت تباشير فكر جديد، وأفق حضاري جديد تلوح، في مصر، وفي بلاد الشام، وغيرها، وتبعث بأصدائها إلى العراق. فيما لا يمكن إنكار مساهمات رائدة، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، هي ضمن أفق فكر اليقظة والتنوير، لعراقيين، جلهم من الأدباء.

بحكم تسيد اللغة العربية الفصحى أداة للإنتاج الثقافي والفكري والإعلامي العربي ناهيك عن كونها مستودعاً للتراث الفكري والأدبي العربي والإسلامي وجد فضاء ثقافي عربي له خصائصه المشتركة أو تكاد.. هذا الفضاء يعد اليوم رهان النهضة العربية الأول على الرغم مما يعانيها من تناقضات ومعضلات وكوابح. وقد وجدت النخب السياسية والثقافية العراقية وأنتجت فكرها في إطار هذا الفضاء. وقد تأثر بهذا المعطى حتى أولئك المنتمين من تلك النخب لأعراق غير عربية، ولاسيما أن إشكاليات تأسيس الدولة العراقية الحديثة ساهمت في تفاعل النخب عموماً في ضمن معطيات فكرية وثقافية نظرية مشتركة كانت في جانب مهم منها إفرازاً للفضاء الثقافي العربي. على الرغم من خصوصيات كل إقليم وبلد عربي، وعلى الرغم من تأصل نزعة وطنية عراقية، ووعي جنيني بذات عراقية تسعى لطرح فكر عراقي أصيل، منفتح على الفضاءين الثقافيين؛ العربي والعالمي.

لكن، قبل الخوض في سرد جانب من مروية بزوغ فكر النهضة في العراق، لابد، في هذا المقام، من استعادة مروية النهضة العربية وفكرها، كما تجسدت في مصر بخاصة.

مع الطهطاوي:

المروية التقليدية لبزوغ فكر النهضة العربية تبدأ مع رحلة رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ . ١٨٧٣) يوم اُختير ليكون إماماً لأول بعثة مصرية يرسلها محمد علي باشا للدراسة إلى باريس (١٩٢٦ . ١٨٣١).. هناك انكب الطهطاوي على الدراسة وتعلم اللغة الفرنسية، ومن ثم الفكر الفرنسي والإطلاع على نمط الحياة المدنية والسياسية في فرنسا، فكتب كتابه الشهير (تخليص الأبريز في تلخيص باريز).. إنها مروية تبدأ بالطهطاوي دائماً، وتنتهي مع طه حسين في الغالب، مروراً بالأفغاني وخير الدين التونسي ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وعلي عبد الرازق وغيرهم. لكن لا بد من الإشارة أيضاً إلى غزو نابليون لمصر في ١٨٩٧ واعتلاء محمد علي سدة الحكم فيها في ١٨٠٥، وما جرت من وقائع دراماتيكية في عهده. ومن ثم في عهد ابنه إبراهيم باشا، وجملة الإصلاحات التي ستضع مصر وبالتالي بقية بلدان المنطقة في منعطف تاريخي كبير، وشائك.

في تخليص الأبريز أراد الطهطاوي تعريف المواطن المثقف والاعتيادي بحقيقة كم تقدم الغرب وكم تأخرنا نحن؟ وفي كتبه اللاحقة أيضاً منها: (مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية) و (المرشد الأمين للبنات والبنين)) بقي في إطار الرؤية الإسلامية للعالم. لكنه دعا العلماء إلى "تفسير الشريعة على ضوء الحاجات الحديثة وأن عليهم أن يتعرفوا إلى العالم الحديث. وبالتالي أن يدرسوا العلوم التي ولّدها العقل البشري" حوراني/ ص,٩٩ لجأ إلى تفريق مونتسكيو بين السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) وفي ضوء ما خبره وتعلمه في باريس أكد على ضرورة فرض القيود على السلطة المطلقة للحاكم، ووجد أن الثروة الوطنية هي نتاج الفضيلة وأن مفتاح الفضيلة هو التربية. وإذا ما حددنا فكر التنوير الأوروبي بتحقيق الذات الإنسانية والعقلانية والحرية فإن فكرة العقل وبناء الشخصية الإنسانية والحرية كانت في صميم طروحاته. وهاهو يرى أن "من شأن الحرية وحدها أن تخلق مجتمعاً حقيقياً وحباً للوطن قوياً". ولقد أدهشته المخترعات والمبتكرات الحديثة في أوروبا وكان يعتقد بأنها "تسجل بدء تطور سيستمر ويؤدي في آخر الأمر، إلى التقاء الشعوب بعضها ببعض، وإلى العيش معاً بسلام، لذلك توجب على مصر أن تتبنى العلوم الحديثة والمبتكرات المنبثقة عنها، دون أن تخشى من ذلك خطراً على دينها" حوراني/ ص,١٠٦

بقي الطهطاوي في نطاق الفضاء المعرفي العربي الإسلامي وتعامل مع مفاهيم العقل والحرية والذات الإنسانية والوطن والتقدم من منظور إسلامي. أو بالأحرى تحديده هو واجتهاده لهذا المنظور. فكان الوطن عنده: "محل السعادة المشتركة نبنيه بالحرية والفكر والمصنع". ولم ير بدا من التعلم من الآخرين/ الغرب والأخذ منهم بما يفيد. ولم يكن عنده مخالطة الأغراب من المحرمات لأنها "لاسيما إذا كانوا من أولي الألباب تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب".

في باريس تأثر الطهطاوي بالفكر الفرنسي المعاصر ولاسيما بمبادئ الثورة الفرنسية وطروحات مفكري عصر التنوير، محاولاً إيجاد نقاط مشتركة بين ما جاؤوا به وما قال به الإسلام. فعن فكرة الحرية يقول في كتابه (تخليص الأبريز)؛ "وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يُطلق عليه عندنا العدل والإنصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوي في الأحكام والقوانين، بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة". وظل عقلانياً، يدرك أن الخروج من دائرة التخلف لا يكون إلا بالنظر العقلي والإبداع. فالعقل عنده من متعلقات الروح.. يقول في كتابه (المرشد الأمين)؛ "فالعقل قوة روحانية بها إدراك حقيقة الأشياء وقياس بعضها ببعض بما فيها من الجامع، والحكم عليها بما يقتضي... فالعقل هو الوسيلة الوحيدة في التصور والتصديق، وتمييز الحقائق على وجه دقيق عميق". وتنبه إلى أفكار من قبيل النظام الطبيعي والعقد الاجتماعي، باحثاً عن مرتكزاتها في الفكر الإسلامي.. يقول؛ "فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهي عبارة عن قواعد عقلية، تحسيناً وتقبيحاً، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية. وكما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية".

وإلى حد بعيد كان الطهطاوي توفيقياً في الجمع بين ما أطلق عليه بالإسلام الصحيح وبين الحضارة الحديثة. وفي هذه الصيغة الثنائية بحسب غالي شكري لا تضعه "جنباً إلى جنب مع دعاة الإصلاح الديني في أوروبا أو في الشرق... ولكن ضمن بنود أخرى تجعل منه رائداً للنهضة لا لحركة الإصلاح الديني" شكري/ ص ,١٥٩

وعموماً، يمكن تلمس تأثر الطهطاوي بالأطروحة الإنسانية كما طرحها فكر التنوير الأوربي، في عديد من الأفكار التي بثها في كتبه، إذ سعى إلى تقصي العلاقة بين ما هو طبيعي في الإنسان وما هو مكتسب، وبين اللغة والفكر والمجتمع في إطارها الإنساني العقلاني، بالأدوات المنهجية الحديثة التي عُرفت في عصره.. يقول: "فالحالة التأنسية للإنسان، والاجتماعات البشرية للتحضر والعمران، هي حالة فطرية للآدمي من أصل ولادته وخلقته. وهي فيه جبلة وغريزة طبيعية. فبالناطقية الموجودة فيه من أصل الفطرة، يمكنه إعمال قواه العقلية بإمعان الفكرة، فيسعى لما فيه التمدن والحضارة، ويبذل جهده بحوز ما ينتج عن التمدن، بالبراعة والمهارة".

ربما لم يُحدث رفاعة رافع الطهطاوي قطيعة بالمعنى الذي تحدث عنه جاستون باشلار وميشيل فوكو مع الفكر الإسلامي التقليدي، لكنه قطعاً أحدث هزة ستتصادى ذبذباتها بدرجات متفاوتة: أفقياً في المكان، في جنبات العالم الواقع تحت الهيمنة العثمانية. وعمودياً في الزمان، إذ ستتتابع المحاولات في مغامرات أكثر جرأة فيما بعد راسمة التاريخ الإشكالي لما سيعرف بالفكر العربي المعاصر. فمع الطهطاوي وتلامذته، وعلى هدي ما كتب وكتبوا ستحصل زحزحة، من نوع ما، في التعامل مع المفاهيم.. ستكون ثمة محتوى جديد لمفاهيم قديمة، ومفاهيم جديدة بمحتوى لم يعرفه العالم الناطق بالعربية من قبل. لن يحصل هذا كله، كما نوهنا، على يدي الطهطاوي وحده، ولكن أولئك الذين سينجزون هذا العمل سيكونون مدينين له كثيراً أو قليلاً حيث سيمكننا القول بأنهم جميعاً خرجوا من تحت جلباب الطهطاوي أو من تحت عمامته. بدءاً من الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومروراً بطه حسين وعلي عبد الرازق) وحتى الجيل المتأخر من الكتاب المثيرين للشغب الفكري (بالمعنى الإيجابي) في وقتنا الحاضر منهم (نصر حامد أبو زيد، سيد محمود القمني).

تتلخص المهمة الرئيسة لأية حركة نهضوية في شقين؛ الأول هو بناء الدولة الحديثة. والثاني هو بناء المجتمع الحديث. وقد وضع محمد علي القواعد الأساسية للدولة المصرية الحديثة ليكون رمزها الفكري، على الرغم من التصادمات والتناقضات بين هذا الرمز وتلك الدولة، هو رفاعة رافع الطهطاوي. فمثّلا كلاهما سياسياً وفكرياً المرحلة التأسيسية، فيما احتاج بناء المجتمع الحديث مدة أطول؛ أي مرحلة تالية.

كانت المرحلة الثانية/ التالية في هذه المسيرة تمتد حتى أعقاب ثورة أحمد عرابي ١٨٨١ وفشلها. ووجدت النهضة في مفكرها محمد عبده (١٨٤٩ . ١٩٠٥) رمزاً جديداً. ويلاحظ غالي شكري في كتابه (النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث) إن السؤال البكر عند الطهطاوي كان "كيف السبيل إلى ربط الإسلام بالحضارة الحديثة، وقد أصبح عند محمد عبده، كيف يمكن ربط المسلم بالحضارة الحديثة" شكري/ ص,١٩٠ ولكن الأمانة العلمية تقتضي الحديث قبل هذا عن واحد من أكثر مفكري النهضة إثارة للغط هو السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ . ١٨٩٧) حيث توشحت حياته وتحركاته النشيطة بين البلدان بالغموض والالتباس. وأول مصادر الغموض والالتباس هو أصله فيما إذا كان فارسياً أو أفغانياً.. سنياً أو شيعياً في مذهبه.. ودوره في مكائد ومؤامرات سياسية بين مصر وبلاد فارس والهند وأفغانستان والأستانة. وحقيقة علاقته مع الحركة الماسونية. لكن هذا كله لا يقلل من شأنه صاحب مدرسة فكرية دعوية مهمة ومؤثرة ألقت بظلالها في طول بلاد العرب والمسلمين وعرضها ووجدت لها أصداء مهمة فيها. ولم ينكب الأفغاني على تأليف الكتب بقدر ما آمن بالفعل السياسي المباشر وإلقاء المحاضرات النارية وكتابة بعض المقالات. أقام في باريس أيضاً ودخل في نقاشات مع مستشرقين منهم رينان، وقام بمفاوضات مع سياسيين بريطانيين في العامين (١٨٨٤ . ١٨٨٥) حول مستقبل مصر والسودان.. جاب صحراء الجزيرة العربية وأعجب بمملكة ابن الرشيد. وفي لنط بمصر حيث استقر لبرهة لتقوية لغته العربية ودراسة الحركات والأفكار الإسلامية الحديثة تعرف على الشيخ محمد عبده، وكانت تلك فاتحة صداقة وعلاقة فكرية وشخصية قوية.

أما الفكرة المركزية عنده كما يقول ألبرت حوراني فـ "لم تكن التساؤل عن كيفية جعل البلدان الإسلامية قوية وناجحة بقدر ما كانت التساؤل عن كيفية إقناع المسلمين بأن عليهم أن يفهموا دينهم الفهم الصحيح، وأن يعيشوا وفقاً لتعاليمه" ص,١٤٢ فأشار على أهمية التمدن وخلق مدنية إنسانية مزدهرة لذا دعا إلى التعلم من أوروبا فنونها المفيدة، لا عن طريق التقليد بل باستيعاب النظرة الفكرية الشاملة التي وراءها. وقد كان الأفغاني أشد دعاة الإصلاح الإسلامي في حقبة النهضة ثورية وراديكالية دعا إلى تغيير واقع البلدان الإسلامية التي رآها ضعيفة والمجتمع الإسلامي الذي وجده فاسداً.. يقول "كل من كان مطلعاً بعض الإطلاع على أحوال زماننا يشاهد بوضوح انحطاط البلدان الإسلامية الحالي، وتقهقر الدول الخاضعة لحكم الإسلام، وانعدام معالم الفكر لدى الشعوب التي اقتبست عن هذا الدين وحده ثقافتها وتربيتها. فجميع من يؤمون الشرق أو أفريقيا يدهشهم ضيق التفكير المحدود بصورة حتمية لدى المؤمن الحقيقي، وذلك الطوق الحديدي الذي يطوق رأسه، فيجعله مغلقاً بإحكام في وجه العلم وعاجزاً عن تلقن أي شيء أو الانفتاح على أي فكرة جديدة".

أراد الأفغاني أن يجعل من الإسلام كرة أخرى ديناً عالمياً، واجداً في الإسلام جوهر العقلانية، ومعتقداً أنه "لا يمكن للعقل البشري أن يحقق نفسه إلا بالإسلام، لأن الشريعة التي تسلمها النبي من الله هي شريعة الطبيعة نفسها التي يمكن للعقل البشري أن تبينها من دراسة الكون" حوراني/ ص,١٥٨

وبقي الأفغاني بشخصيته الكاريزمية، ودعوته الإصلاحية ذات الطابع الراديكالي محطة مهمة في مسار تطور فكر النهضة. وكان له مع محمد عبده (صديقه وتلميذه) تجربة مشتركة، ولحظات تقارب شديدة وابتعاد وتنافر.

المصادر:

١. تعني الإشارة (حوراني) كتاب ألبرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩) ترجمة: كريم عزقول.. دار النهار للنشر. بيروت.. بلا تاريخ نشر.

٢. الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي.. تحقيق محمد عمارة.. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.. بيروت.. جزءان.

٣. تعني الإشارة (شكري) كتاب غالي شكري ((النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث) دار الطليعة.. بيروت.. ط١/ ١٩٧٨.